

## في مصر أزمة سيدات

بقلم الأستاذ "س".

نعم في مصر أزمة سيدات على كثرة من فيها من النساء ، فليست كل امرأة سيدة . ومن هنا كانت الأزمة التي تعانيها مصر في سيداتها ، وهي أزمة يتوقف على حلها كثير من الإصلاح الاجتماعي والخلقي والعقلي في هذه البلاد .

فكلمة "سيدة" في ذاتها تدل على امرأة "تسود" شيئا وترعاه . فلا بد من شيء ينال رعايتها وحمايتها حتى تصير جدية بهذا القرب العظيم ... شيء ما : ابنتها ، الأولاد . المجتمع الأخر الفقيرة ، الأطفال المشردين ، النسوة الخاطئات ... شيء ما من هذه الأشياء التي تجب فيها فضائل المرأة ، وتتبدى رحمتها وحنانها .

وفي الأمم الراقية تشعر المرأة بهذا المعنى شعور عميقا ، وتحس أن الرعاية جزء من شخصيتها لا تكمل إلا به ، فهي صبية ترعى إخوتها وأخواتها الأطفال ، وهي شابة ترعى هؤلاء وتشارك في الخدمات الاجتماعية التي تنهض بها الجماعات ، وهي سيدة ترعى بيتها وأطفالها وزوجها وتتفق مابق من وقتها — إن تبقى منه شيء — في رعاية الطوائف المحرومة والطبقات البائسة ... فإن لم يكن شيء من ذلك كله فلا بد أن تسبغ رعايتها على شخصية أو شخصيات أخرى ... على عالم تعاضده أو فان ترعاه أو مشروع تنفخ فيه روح الحياة .

والمرأة هناك تقوم بهذه الرعاية بلا كلفة ولا انتباه . تقوم بها بجزء من وظيفتها الطبيعية بلا حاجة إلى الإعلان ، وبلا دعوة من أحد ، كما تحمل الأطفال وتضعهم وترضعهم وتسهر عليهم سواء بسواء .

أما في مصر فالسيدة — بهذا المعنى — معدومة أو نادرة ، وقد سئل أحد كبار أدبائنا أن يسمى نحسا من العظيمات في مصر فذكر أربعا وعجزت ذاكرته أن يجد فيها الخامسة ؛ والنتيجة تكاد تكون قريبة من هذا لو سئل عن عدد "السيدات" !

عنصر الرعاية الذي هو العنصر الرئيسي في نفس "السيدة" هو الذي تفقده مصر في نساءها فلا تشر عليه إلا في الندرات القليلات . ومن هنا لا تزدهر "الخدمة الاجتماعية" في مصر ، لأن المرأة لا تنهض بهذا الواجب بشخصها ، ولا تبذر بذوره بالتدوية في نفوس أبنائها وبناتها ... ويطول شقاء مصر إن دامت الحال على هذا المتوال ...

ولا أحاول أن أنكر أن المرأة المصرية ساهمت في النهضة الوطنية ، كما بدأت تساهم في الخدمة الاجتماعية، ولكن من الحق أن نقول : إن مساهمتها هنا وهناك كانت على سبيل التقليد ، كانت نوعاً من "المودة" ظاهراً الشهرة ونشر الأسماء والصور في الصحف ، كانت إعلاناً لأقل ولا أكثر ، ولم تصر بعد تلبية للوظيفة الطبيعية ، وتكافة لعناصر الشخصية التي تستحق اسم "سيده" والتي تؤدي في صمت وهدوء كما تؤدي الوظائف الطبيعية في الحياة .

ولسوء الحظ أن تعليم فتيات الجيل جميعاً لا يمكن أن يتم دفعة واحدة... ومن هنا شعرت المتعاملات أنهن جنس جديد غير جنس المرأة التي برينها في الريف وفي الحريم . جنس غير مطالب بوظائف المرأة وإنما عليه أن ينهض بأعباء الرجال مادام يشبه جنس الرجال في التعليم ولا يشبهه جنس النساء ، فلما أُقبلن على المساهمة في الحركة الوطنية وفي الخدمة الاجتماعية أُقبلن مندفعات بتقليد الرجال ولأداء وظائف الرجال ... وتلك هي الغلظة التي عوقت خطوات النهضة النسوية ، أي نهضة السيدات .

وبعض المشتغلات بالمسائل العامة يأنفن من رعاية البيت ، لاعتقادهن أن الاشتغال بالشؤون العامة لا يتفق مع هذه الرعاية ، وأن العمل العام أهم وأعظم شأنًا من العمل للأسرة في داخل العش ... وتلك هي غلظة العقيدة النسوية في هذه الفترة ، وغلظة التعليم البأس الذي تناله المرأة في هذه الأيام ... التعليم المشترك مع الرجال .

وفي أوروبا وأميركا كثير من "السيدات" الوالدات يسبغن رعايتهن الكاملة على بيوتهن وأزواجهن وأطفالهن ، ويحطن العش المقدس قطعة من الفردوس الناعم ، ثم يجدن بعد ذلك من وقتهن وعطفهن ما يعين به الشؤون العامة بلا تعارض ولا اصطدام .

لماذا ؟ لأن السيدة هناك تفهم أولاً أنها امرأة ، وأنها بهذه الصفة تؤدي وظيفة خاصة للمجتمع - تؤديها على طريقته الخاصة لأعلى طريقة الرجل ، فتفعل فيها لأنها تؤديها بالطريقة الطبيعية ، ولا تنسى أن هذه الوظيفة هي الرعاية لا المنافسة ... هي رعاية الرجل والطفل والمجتمع بالعطف والبر والحنان .

وسينقضي وقت طويل قبل أن تستقر الفورة الفائرة في تلك العروس الصغيرة الجميلة . وقبل أن تعود الشاردات عن جنسهن إليه ، وقبل أن تهتدى العقيلة التعليمية في هذا البلد إلى أن للمرأة ثقافة خاصة يجب أن تعمقها الطفلة والصبية والفتاة ، وقبل أن تفهم المرأة المتعلمة أنها تؤدي للوطن حين تنشيء له جيلاً صالحاً لخدمة أكبر وأجل مما تؤديه حين تخطب في المؤتمرات وتشتغل بالحمامة وتقوم بأعمال الرجال في وقت يتعطل فيه الشبان عن العمل لضيق المجال .

نعم سينقضى وقت طويل قبل أن تدرك المرأة في مصر مغزى قول النبي العظيم: "مهنة احداكن في بيتها تدرك جهاد المجاهدين إن شاء الله" فتدرك أن رعاية المنزل تخلف منها "سيدة" لا يخلقها "الروب" وأنها تستطيع مع هذا أن ترى المجتمع كله أو بعضه في أوقات الفراغ .

فإذا جد الجد ووقعت الواقعة واحتاجت مصر إلى بناتها ونسائها بعد أن تستنفد شبانها ورجالها في الأعمال انعاما ، فهنا يصبح واجبا على المرأة أن تتخلى عن وظيفتها الأولى ، وأن تلبي هذه الحاجة الاستثنائية كما تصنع الشعوب المحاربة في هذه الأيام .

ولا يفهم أحد من هذا أن كل امرأة تقبع في دارها، وتنسل للبلد أطفالا هي في عرفي "سيدة" فقد تسمى "أختي" وقد تسمى "امرأة" ونكناها لا تكون "سيدة" إلا أن تتقن عملها ، لا تكون "سيدة" إلا أن تكون "راعية" وإلا أن تمتع هذا العش بالدفع والصيانة .

والسيدة التي ترضى البيت هي التي تستطيع أن ترضى الوطن ، ولن تفشل امرأة في مملكتها للصغيرة ثم تتجح بعد ذلك في الملكة الكبيرة ، ذلك أنها لا تتجح هنا إلا بأداء وظيفتها هناك والعواطف التي تتفجر في نفسها فتدفعها إلى الخدمة العامة إنما تجمع وتنبع من اعتمادها للخدمة الخاصة ، بل هي لا تصنع حين تخرج من الدار إلا أن توسع دائرة رعايتها الأنثوية ، فاذا حادت عن هذا واتجهت سبيل الرجال فقد عملها قيمته، وفقدت هي نفسها، وافتقدتها للوطن كثير لهمة الرجال .

وقد قرأت في البلاغ هذه الفقرات عن المرأة الروسية في الحرب الحالية مندوبها الحوالم هناك الأستاذ "عبد المنعم حسن" فيحسن أن أضع أمام المرأة المصرية هذه الفقرات : "إن أقصى دروس التضحية والوطنية تتجلى الآن في أقاليم روسيا، فبعد أن يجهد الفتيات والنساء أعصابهن في العمل لتموين الجنود المحاربين ، يصرن دماءهن ويرسلنها لتقوية الجرحى . وبذلك تساهم روسيا : نساؤها ورجالها بكل دماؤها .

"وبقدر ما يثير هذا المنظر من الألم ، بقدر ما يهز النفوس إعجابا ببسالة النساء وإيمانهن بالفكرة الوطنية ، ففي أحد المستشفيات تجمعت الفتيات والنسوة ، وقد مدت كل منهن ذراعها فيشد إلى مسند صلب بلقافات من المطاط ويفرس الطبيب إبرة في صلب الشرايين ، فيسيل الدم في أنابيب من الكاوتشوك ثم يمر منها إلى أنابيب أخرى خاصة بهذه العملية ويجرى الدم بسرعة تصل أحيانا إلى ٢٥٠ جراما في ثلاث دقائق . ويرسل هذا الدم إلى مستشفيات العسكرية في أنابيب يحوى ٥٠٠ جراما .

”وقد نظمت هذه العملية في كل المدن لروسية وبدأ بقيد أسماء المتبرعات بدماهن ، ثم فحصهن في العيادة الخاصة بكل حى . فاذا ثبت نقاء دم المرأة أو نقىة وصلاحيته ، أدخلت قاعة الطعم حيث تقدم لها أكلة خفيفة قوامها الشاى والبسكويت . ثم تدخل غرفة أخرى حيث تابس معطفا وجوارب بيضاء وطاقيية رسمت عليها النجمة البيضاء . وقذاعا واقيا من اغازات ثم ينقل دمها بعناية وسرعة في نايب خاصة ، وتقدم لها بعد ذلك أكلة دسمة ، بينما طبق إجارى من اللحم ، وتستغرق هذه العملية ساعتين وعض الساعة .

”وقد أتيج لى أن أشهد هذه العملية على الحدود بإذن خاص ، فوالله ما شهدت أهول من هذا المنظر تأثيرا فى القلوب ، وتذكرت وطنى ، وما يعوزه من التضحيات ، وما نخل به نحن الرجال ، أترىء وأقوياء ، من التضحيات التى تقل عن ذلك بكثير ، أحسست بالخلج كرجل وجف حنى ، وأنا أكم دموعى وزفراقى عندما رأيت سيدة تمسك بأقلم ، وكأنما لم ينقص دمها شيئا ، ولا وهنت قواها مقدار ذرة وتكتب السطور التالية .

”أيها المحارب العزيز ، أتمنى أن يكون هذا الجزء الصغير من دى معجلا بشفائك واسترداد قواك التى تعوزك للاتصيار على العدو “ ثم وقت بين دموع التأثر والإعجاب ”أتى جيركونا “ ... .. وكنت عنوانها .

”وتناولت فتاة أخرى القلم وكتبت ”أيها الرفيق . إننى عاملة بصنع وأرسل لك دى لتسترد قواك وأرجو أن تكتب لى ... “مارى بزرايوتشونا“ .

”وكتبت فتاة ثالثة “ليس لى حظ مقاتلة العدو وجها لوجه ، وجسما بلحم ، للدفاع عن وطنى ، ولا أملك أكثر من دى أرسله لك لتجديد قواك ، وهو دم نقى من الدرجة الأولى ، ونسبة الميموجوليون فيه هى ٦٩ . / وسأعطى من دى كل مايتجدد ، إلى آخر قطرة فى شرايبنى . “كوكرنيا — عاملة تليفون“ .

وكتبت فتاة أخرى ”أيها الرفيق . بل ربما أتى “ .

”وأخرى “أريد أن أعرف أتى من اندم “ أو...أتى العزيز . أمك تهديك أعز ماتملك . فاشف بسرعة ، وعد لقتال العدو “ .

”وترفق هذه الرسائل مع كيات الدم ، فيلقح الجريح بالدم ، ويقرأ الرسالة المنرسلة إليه وقد تجرى المصادفة ، بأن تكون من أخته أو أمه أو زوجته أو ابنته “ .

وهكذا ظلت المرأة الروسية ”امرأة“ حتى فى أرحح اللحظات ، امرأة تستخدم مواهب جنسها من العطف والرحمة والرعاية واستئارة نحوه الرجل ليضعف جهاده ويشحذ عزيمته ويمد فى الميدان فضائل جنسه على ضوء من فضائل الجلس الأخرى مؤخرة الصفوف .

وهكذا قامت المرأة الروسية بدورها في بساطة وسهولة واطمئنان ، فقدمت دمها لاجدود جهودها دون أن تفهم أنها قامت بالمعجزات ، ودون أن ترتقب نشر اسمها وصورها في الصحف ، ولم تجد بالدم لأن الجلود به " مودة " وسيلة من وسائل الظهور ، بل لأنه تلبية لغريزة الأمومة والعطف الأنثوى في نفسها ، وأداء لوظيفة طبيعية من وظائفها .

»

مصر في حاجة إلى " سيدات " يعرفن فضائل جنسهن الأصلية ، ويستخدمنها أولا في البيت والأسرة ، وثانيا في الخدمة الاجتماعية العامة ، وهذه وتلك متصلتان في الحافز عليهما كما أسلفت ، وطرائق الخدمة الاجتماعية المتعلقة بوظيفة المرأة كثيرة متعددة ...

فمصر في حاجة إلى عشرات ، بل مئات ، من الجماعات النسوية لا يكون همها الأكبر هو لمطالبة بحق المرأة في عضوية البرلمان ، فهذه العضوية وأمثالها من مطالب الترف هي آخر ما تؤديه المرأة من الوظائف النافعة للمجتمع والوطن .

مصر في حاجة إلى جماعات نسوية تدرس حالة الأسر الفقيرة في كل حي من الأحياء وتزور البيوت المتواضعة وتمتدح بنساء الطبقات المحرومة ، وتعرف تقائص هذه الطبقات وحاجاتها وأمراضها ، ثم تستعين بعد هذه الدراسة بمجهود الطبقات الغنية وما لها على إطعام الجوع ومداداة المرضى وإرشاد الخاطئين وإصلاح "شواذ" ، في تلك البيئات .

ولما في هذا المجال حقول خصبة للتجربة والإصلاح ، وقد بدأت وزارة الشؤون الاجتماعية بنواة طيبة في مشروع " مساعدة الأسر الفقيرة " فعلى المرأة المصرية أن تجتهد في إحراز لقب " سيدة " وفي إظهار مواهبها وفضائل جنسها في هذا المجال الفسيح ، وسنرى ما يكون .

ومصر في حاجة إلى جماعات نسوية تأخذ على عاتقها رعاية الصبيات والفتيات اللواتي لا عائل لهن أو اللواتي يضيق بهن رزق العائلين ، حتى لا يقعن فريسة الفقر والحاجة ، وحتى يخدمن في هذه الجماعات العطف والعلم المناسب والتربية والتدريب ، ثم يخدمن منها المعونة على الزواج والتجهيز بما يناسب الحال .

ومصر في حاجة إلى جماعات نسوية تتنقذ المخطئات والواقفات على شفا الهاوية ، فتطهر الأوليات ، وتسعف الأخرى ، وتتعهد الجميع بالرعاية والتهديب والإرشاد ، وتقدمهن إلى المجتمع بعد ذلك نظيفات عفيفات ، أو تهيء لهن من وسائل الحياة ما يحفظهن من التعرض للوبقات .

وما هذه الجماعات إلا أمثلة للجماعات النسوية المختلفة التي تحتاج مصر إليها في الحاضر وفي المستقبل ، وإلا أمثلة لما تؤديه المرأة من الوظائف حين تجرد في نفسها فضلة من النشاط الزائد عن بيتها وأولادها إن كانت ربة بيت ، وعن دروسها وواجباتها إن كانت طالبة أو في دار أبيها .

وفي هذا النشاط النافع وقاية للمرأة المصرية من التفاهة التي تصير إليها حين تكثر أوقات فراغها ، فلا تجرد من المشاغل ما " تقتل به الوقت " إلا العناية بالمودات والأزياء ، وإلا الزيارات الرخيصة الجوفاء ، وإلا قفزة اللب ولوك الأحاديث التافهة عن أسرار الجيران والجارات ، وحبك الدسائس والشائيات للمعارف والصاحبات .

فيه ما يرفع من نفسية السيدة، ويشعرها بأن لها وظيفة سامية في الحياة، لا تصلح الحياة بدونها ، فهي وظيفة أصيلة في كيان المجتمع وليست نافلة على هامشه ، فتعز بفضائل جنسها وتحرص عليها، ولا تهرب منها إلى احتمال فضائل الرجل التي ليست خيرا من فضائلها في ذاتها .

ولعل الله أن يهدينا قريبا إلى برامج دراسية لافتاة تعدها لهذا الواجب العظيم الذي ألقته الطبيعة على كاهلها ، وجعلتها بأدائه مساهمة أصيلة في بناء المجتمع وتشيد صرح الوطن ، بل الإنسانية والخلق والدين والحياة ...

« س . . . »